

اللاجي وتمثيلات الهامش في رواية "ها قد أتى الحالمون" لإمبولو مبوي
The refugee and the representations of the margin in Imbolo Mbue's
Novel Behold the Dreamers

فتيحة عاشوري

جامعة الشاذلي بن جديد الطارف، الجزائر، f.achouri@univ-eltarf.dz

تاريخ النشر: 2025/12/02

تاريخ القبول: 2025/10/30

تاريخ الاستلام: 2025/09/02

ملخص:

ينطلق هذا المقال من رواية "ها قد أتى الحالمون" لإمبولو، متناولا تمثيلات اللاجئ بوصفه إحدى أبرز صور الهامش في الأدب ما بعد الاستعمار، وي طرح إشكالية محورية مفادها: كيف تُعيد الرواية بناء صورة اللاجئ وتفكك خطاب المركز من خلال سردية الهجرة والمنفى؟، محاولين تسليط الضوء على إبراز تحوّل اللاجئ من مجرد ضحية إلى فاعل يسائل مفاهيم الهوية والانتماء والحلم الأمريكي، مع التركيز على البنية السردية وتمثيل الشخصيات، معتمدين في ذلك على المقاربة النقدية الثقافية التي تستند إلى مفهومي الهامش والمركز في إبراز كيفية إسهام الأدب في مساءلة الواقع السياسي والاجتماعي من موقع التهميش، وفتح أفق جديد لفهم الذات المهاجرة وتحولاتها في سياق العولمة والاغتراب.
كلمات مفتاحية: اللاجئ، الهامش، تمثيلات، ها قد أتى الحالمون، إمبولو مبوي.

Abstract:

Beginning with Imbolo Mbue's "Here Come the Dreamers", this article explores how the refugee is portrayed as one of the most notable marginalised figures in postcolonial literature and raises the following main query: How does the novel use the story of migration and exile to reframe the refugee and dismantle the central discourse? Using a cultural critical approach based on the refugee's transformation from a victim to an actor who challenges ideas of identity, belonging, and the American dream, focusing on the narrative structure and character representation, highlighting how literature helps to question political and social reality from a position of marginalisation and opens a new horizon for understanding the migrant self and its transformations in the context of globalisation and alienation.

Keywords: Refugee; Margin; Representations; Behold the Dreamers; Imbolo Mbue....

1. مقدمة:

بات موضوع اللجوء -في ظلّ تصاعد الأزمات السياسية والاقتصادية في العالم المعاصر- يحتل مكانة مركزية في الأدب العالمي، حيث أضحى اللاجئ شخصية رمزية تعكس اختلالات المنظومة العالمية، وتجسد الفجوة بين المركز والهامش، ومن هذا المنظور تتدرج رواية ها قد أتى الحالمون (Behold the Dreamers) للكاتبة الكاميرونية إمبولو مبوي Imbolo Mbue، ضمن الأعمال الأدبية التي تطرح أسئلة معقدة حول الهوية والانتماء، والكرامة الإنسانية في سياق الهجرة والاضطراب الاجتماعي، فالرواية لا تكتفي بسرد تجربة اللجوء، بل تسعى إلى تفكيك الخطابات السائدة حول الحلم الأمريكي، وكشف حدود الاندماج الاجتماعي والثقافي في عالم تحكمه البنى النيوليبرالية الصارمة.

تتطلق هذه الدراسة من إشكالية أساسية تتمثل في: كيف تصوّر تجربة اللاجئ في الرواية باعتبارها تمثيلاً للهامش، وكيف تُوظّف الكاتبة آليات السرد لكشف البنى الاجتماعية والاقتصادية التي تُعيد إنتاج الهامش؟.

وتتفرّع عن هذه الإشكالية عدّة تساؤلات فرعية تحاول الإجابة على كيف يُعاد بناء الهوية الفردية والجماعية للاجئ في ظلّ الاغتراب الثقافي والاقتصادي؟، وبأي أدوات سرية تمارس الكاتبة نقداً مبطناً للسياسات النيوليبرالية في الغرب؟، وكيف تُوظّف الرواية فضاء المدينة (نيويورك) للكشف عن علاقات القوى بين المركز والهامش؟، وما مدى فعالية الرواية في إعادة تشكيل صورة اللاجئ بعيداً عن الصور النمطية؟.

هذا وتهدف هذه الدراسة إلى تحليل الرواية من منظور النقد الثقافي للكشف عن البعد الأيديولوجي الكامن خلف خطاب اللجوء، وتبيان كيف يتحوّل النصّ الأدبي إلى ويلة لمساءلة الهويات المفروضة، وتفكيك ثنائية (المركز، الهامش)، كما تسعى إلى إبراز

إمكانات الأدب في مقاومة التمثيلات النمطية للآخر المهمش سواء أكان مهاجراً، أو لاجئاً، أو منتظماً إلى العالم الثالث.

وتعتمد هذه المقاربة على أدوات النقد الثقافي باعتباره منهجاً يقارب النصوص الأدبية في ضوء سياقاتها الاجتماعية والسياسية، مستندة إلى تصورات إدوارد سعيد في الاستشراق، وهومي. ك. بابا Homi. K. Bhabha في مفاهيم الاختلاف الثقافي، وغياتري سبيفاك Gayatri Chakravorty Spivak في مسألة من يتكلم باسم المهمش؟، إلى جانب مقاربات حديثة في نظرية التابع وتمثيلات الهامش.

2. اللاجئ وتمثيلات الهامش في الرواية العالمية

يعدّ مفهوم اللاجئ من المفاهيم المعاصرة التي اكتسبت راهنية متزايدة، إذ في ظلّ التحولات الجيوسياسية، والنزاعات المسلحة، والأزمات الاقتصادية والبيئية اللاجئين تصاعدت الأسئلة الثقافية والإنسانية المرتبطة بموقعهم في المجتمعات المستقبلية، وتمثيلاتهم في المتخيل الأدبي العالمي، لاسيما في ظل الخطابات المرتبطة بالهامش والمركز، والسلطة والمقاومة، والهوية والانتماء.

أضحت الرواية العالمية -في هذا السياق- بما تملكه من قدرة على النقاط التحولات الوجودية والتاريخية، منصّة حيوية لتأمل الوضعية اللاجئة، ليس بوصفها مجرد مأساة إنسانية، بل بوصفها بؤرة لتفكيك العلاقات البنيوية بين الفضاءات والثقافات، وبين الذات والآخر، وبين الهامش والمركز؛ فاللاجئ في هذا الإطار لا يقدّم كضحية فحسب، بل كموقع من المقاومة، وكعلامة على تفكك الحدود القومية والثقافية التي شكّلت سرديات الدولة الحديثة.

لقد توسّع الاهتمام النقدي في العقود الأخيرة حول علاقة الأدب بالهجرة واللجوء، وبرزت دراسات تعالين كيف يتم تمثيل اللاجئين في النصوص الأدبية، سواء من حيث البناء

السّردى أو من حيث البنية الرمزية للهوية والتشظي والانتماء، وفي هذا المجال أسهمت دراسات مابعد الاستعمار، والدراسات الثقافية ونقد الهوية في بلورة مقاربات جديدة تحلّل الخطابات الأدبية حول الهامش واللجوء بوصفها فضاءات للتفاوض والتناص، لا فضاءات للهيمنة فقط، فالثقافة الامبريالية تعيد تشكيل الآخر ضمن نمط هيمنتها، وهو ما يتوافق مع رؤية هومي. ك. بابا حول التهجين الثقافي بوصفه منتجاً لفضاء ثالث، تتقاطع فيه الأصوات وتعاد صياغة السلطة، أين "تصاغ استراتيجيات التمثيل والقوة أو امتلاك القوة في دعاوى الجماعات المتنافسة حيث يتمكن لتبادل القيم، والمعاني، والأولويات ألا يكون تعاونياً وحوارياً على الدوام، على الرغم من تواريخ الحرمان والتمييز المشتركة، وإنّما قد يكون تناحرياً وصراعياً على نحو عميق، بل وقائماً على التفاوت والتباين أيضاً"¹.

لا يُصوّر اللجوء في الرواية كتحوّل مكاني فحسب، بل كتحوّل أنطولوجي وهوياتي، إذ يفقد اللاجئ ليس بيته وحده، بل رموزه وثقافته ومركزية وجوده، ويجد نفسه على الهوامش، يواجه أنظمه قانونية وثقافية لا تنظر إليه سوى بوصفه تهديداً أو عبئاً، وبذلك تتقاطع تمثيلات اللاجئ مع أطروحات إدوارد سعيد حول المثقف المنفي الذي يحمل وعياً مزدوجاً، يعيش في منزلة بين المنزلتين، ويتكلّم من موقع الهامش الذي يزعزع مركزية الخطاب الغربي، فالمنفى ليس فقط محنة، بل موقع نقدي يسمح برؤية العالم من الخارج²، كما يمكن قراءة تجربة اللاجئ من منظور الفضاء الثالث الذي نظر إليه هومي. ك، إذ أنّ اللاجئ لا يندمج تماماً في الثقافة المستقبلية، ولا يبقى محصوراً في ثقافته الأصلية، بل يُنتج موقعاً هجيناً، يتم فيه التفاوض على الهوية من جديد؛ ففي الفضاء الثالث تتقاطع الهويات، و"تعاد إنتاجية المعانى التي تبني معارف مضادة *in medias res*، في فعل الصراع والتوتر ذاته، ضمن حدود التفاوض وليس التنافي بين العناصر المتضادة وليس المتناحرة"³، هذا الفضاء

يظهر بوضوح في لغة الخطاب ودينامية الكتابة، وفي مفردات التهجين الثقافي واللغوي والرمزي، مما يجعل من نصوص اللجوء تعبيراً عن تمفصلات معقدة للهويات المتصدعة. وتبرز الروايات التي تتناول موضوع اللجوء -عموماً- تمثيلات متباينة للآجئين، يتأرجح فيها الخطاب بين التسامح والتسييس، وبين التمثيل الإنساني والتوظيف الإيديولوجي، ففي بعض الأعمال يُصوّر اللاجئ في حدود ضيقة كرمز للمعاناة، بينما تذهب روايات أخرى إلى تعقيد الصورة، وتقديم اللاجئ كفاعل اجتماعي وثقافي، يسهم في نقد النظام العالمي، ويكشف هشاشة المراكز المهيمنة، ومن هنا يبرز الهامش بوصفه موقعا ليس للضحية فحسب، بل أيضا للقول والمساءلة والتخيّل البديل.

لئن ارتبط الهامش تاريخيا بحالات التهميش والعنف الرمزي، فإنّه في الأدب يتحوّل إلى مساحة من الإنتاج الدلالي، حيث يمكن للكاتب أن يعيد كتاب العالم من خارج المركز، فاللاجئ من موقعه على الهامش لا يتبنى السردية الرسمية، بل يُعيد تأويلها، ويكشف تناقضاتها، ويؤسس لسردية بديلة تُضفي على تجربته الاعتبار الإنساني والفكري، وهذا ما يجعل من أدب اللجوء أداة لمساءلة المفاهيم المعيارية للهوية والانتماء، بل لإعادة تشكيل معنى المواطنة والانتماء في زمن ما بعد الحداثة.

في ضوء ما سبق، تتّضح أهمية التمحيص في الرواية العالمية المعاصرة التي تتناول تجارب الآجئين، لكونها تعبّر عن اشتباك دلالي حادّ مع قضايا العنف والتّشظي والتّاريخ والهوية، ولأنّها تمثّل مختبراً سردياً يعكس التّحوّلات الإيديولوجية في رؤية العالم إلى الآجئين، ولعلّ رواية ها قد أتى الحالمون لإيمولو مثال دالّ على هذا الاتّجاه، حيث تمثّل تجربة اللجوء في إطار متعدّد الأصوات والهويات، يجمع بين الحلم الأمريكي ومآلاته، وبين مرارة الانفصال وحنين الانتماء.

إنّ الانفتاح على هذا النوع من الروايات من موقع النّقد الثقافي، والدّراسات ما بعد الكولونيالية، يُتيح إمكانية تفكيك الصورة النمطية عن اللاّجئ، وفتح أفق جديد لفهم الهامش بوصفه موقعاً معرفياً وأخلاقياً يقف على تخوم السّلطة والهوية، ويعيد مساءلتها من جديد.

3. صورة اللاّجئ: من الاغتراب الجغرافي إلى التهميش الرمزي

يبدأ مسار اللاّجئ بالاقتلاع من الجغرافيا الأصلية، حيث يقف فضاء الانتماء الذي يحدّد هويته المكانية والثقافية، هذا الاغتراب المكاني لا يقتصر على الفقد المادي للمكان، بل يحمل معه قطيعة مع شبكة العلاقات والرموز التي شكّلت ذاكرة الفرد وانتماءه، وتمثّل تجربة اللجوء أو النفي حالة معقّدة تتقاطع فيها الأبعاد الجغرافية والنفسية والاجتماعية؛ إذ لا يقتصر الاغتراب على كونه انتقالاً مكانياً من وطن إلى آخر، بل يمتد ليشكّل أزمة وجودية عميقة، فاللاّجئ يفقد وطنه وتضعف روابطه الاجتماعية والثقافية، ما يؤدي إلى تشكّل هوية جديدة هجينة متأرجحة بين الانتماء والانفصال، هذه الحالة من التداخل الثقافي ليست مجرد تنوّع أو إثراء للهوية، بل ترتبط غالباً بشعور أعمق بالفقد والانفصال عن الجذور، حيث يجد المنفي نفسه موزعاً بين عالمين دون أن ينتمي تماماً لأي منهما، وهنا يتقاطع البُعد الثقافي مع البُعد النفسي لتجربة اللجوء أو المنفى، الذي لخص إدوارد سعيد وصفه بأنّه "شرح لا يلتئم أبداً بين الإنسان ومسقط رأسه، بين الذات وموطنها الحقيقي؛ حزنه الجوهري يظلّ حاضراً على الدوام...ومهما حقّق المنفي من إنجازات، فإنّها تظلّ مثقلة دوماً بفقدان شيء تركه وراءه إلى الأبد"⁴، وترك أثره العميق على وعي اللاّجئ بذاته وبالعالم من حوله.

بيد أنّ العبور إلى فضاء جديد لا يؤمّن الانخراط الكامل في نسيج المجتمع المضيف، إذ غالباً ما يتحوّل اللاّجئ إلى موضوع لإقصاء غير معنٍ عبر التهميش الرمزي، الذي يعتبر "شكلاً من أشكال العنف اللطيف وغير المحسوس، يكاد يكون غير مرئي لضحاياه

أنفسهم، ويمارس في الأساس عبر الوسائل الرمزية للتواصل والمعرفة- أو بدقة أكثر عبر الجهل، والاعتراف، أو في الحد الأدنى للشعور⁵؛ يتجلى في اختزال صورته ضمن أنماط خطابية جاهزة تحدّد قيمته ومكانته، وتقيد إمكاناته في التمثيل الذاتي، ذلك أنّ الانتماء حين يتمزق يغدو الإنسان موزعاً بين أكثر من هوية، فلا يجد نفسه كاملاً في أي منها⁶، وهو ما يسمح بانتقال الاغتراب من بعده الجغرافي إلى بعد رمزي نفسي وثقافي، أين تصبح الهوية عرضة لإعادة الإنتاج والمحاصرة، بل والمصادرة من قبل الآخر، فاللجوء لا يعني أن تكون بعيداً عن أرضك، بل أن تعيش دائماً على هامش الأمكنة والناس، ليصبح اللاجئ أسيراً لهامش مزدوج: هامش المكان وهامش التمثيل، ليعكس هذا الانتقال علاقة جدلية بين المكان والمعنى؛ فقدان الأرض يولّد هشاشة في الهوية، والتهميش الرمزي يعمّق هذه الهشاشة، ليجعل الاغتراب حالة ممتدة تتجاوز حدود الجغرافيا إلى فضاءات الثقافة والتمثيل.

4 تمثيل اللاجئ في رواية "ها قد أتى الحالمون" Behold the Dreamers

تكشف رواية Behold the Dreamers للكاميرونية Imbolo Mbue عن تمثيلات متعدّدة ومعقّدة للجوء، حيث تتقاطع فيها محاور الهوية والانتماء، الاغتراب والتهميش، المقاومة والانبعث، ضمن سردية تتجاوز الطرح الكلاسيكي للاجئ باعتباره ضحية، لتقدّمه باعتباره فاعلاً سردياً يفرض حضوره في نسيج الحكاية الأمريكية، من خلال رسم شخصيات مهاجرة تعاني من صدمة الانسلاخ الثقافي، وإحباطات الاندماج، ترصد تحولات الهوية، وتبرز آليات الاشتغال السردية التي تجعل من الهامش مركزاً بديلاً، من الحلم الأمريكي مرآة لانكسار الحالمين.

تدور أحداث الرواية حول Jende Jonga، مهاجر كاميروني يسعى وراء الحلم الأمريكي رفقة زوجته نيني وابنه، حيث حاز على وظيفة سائق لدى مصرفي ثري في نيويورك يدعى كلارك إدواردز Clark Edwards، فيكشف جنّاً قسوة الحياة الأمريكية

وقوانين الهجرة الصارمة، تبدأ زوجته بالعمل خادمة، ويواجهان معاً استغلالاً ناعماً ومخاوف مستمرة من الترحيل.

تتقاطع الرواية مع الأزمة المالية لسنة 2008، حيث تنعكس التحولات الاقتصادية على مصائر الجميع، مهاجرين وأمريكيين على حدٍ سواء، فتفكك الرواية بنية الحلم الأمريكي وتعرض هشاشته، إذ يتداعى عالم كلارك إدواردز Clark Edwards كما يتهاوى طموح جنغا، ولكن في خضم السقوط ينمو وعي جديد لدى الشخصيات الورقية حول معنى الكرامة والانتماء والاختيار، لتطمح بذلك الرواية إلى طرح أسئلة وجودية حول الهوية والمكان والعدالة، لتبرز بأنّ الهامش لا يخص اللاجئين فحسب، بل يمتدّ ليشمل الجميع داخل نظام اقتصادي غير عادلٍ، لذلك أيضاً فرواية ها قد أتى الحالمون هي رواية عن الكرامة والخوف، عن الحب والهجرة، وتحول الإنسان تحت ضغوط العالم الحديث.

5 منفى بلا خرائط: هوية على هامش الحلم

تكشف رواية ها قد أتى الحالمون عن صورة اللاجئ بوصفه ذاتاً منفية تعيش على هامش الجغرافيا والثقافة، حيث لا يقدم كشخص فار من واقع مأزوم فحسب، بل ككيان يعيش بين فضاءين؛ موطن الأصل الذي بات بعيداً، وبلد المهجر الذي لا يعترف بانتمائه، ويتجسد هذا الاغتراب المزدوج الجغرافي والرمزي في شخصية جنغا وعائلته التي تعاني من هشاشة قانونية واجتماعية تجعل وجودها مشروطاً بسلسلة من الإجراءات البيروقراطية ومخاوف الترحيل وانعدام الاستقرار، فجونغا رغم اجتهاده في العمل، يبقى مهدداً بفقدان كلّ شيء إن عجز عن إثبات أحقيته في الإقامة، وهو ما يخلق حالة من القلق الهوياتي المستمر، حيث إن "المهاجر يفاوض دائماً من أجل الانتماء، بينما يخشى الطرد في الوقت ذاته"⁷، هذا الاغتراب يتجاوز البعد المادي ليصبح إقصاءً رمزياً وثقافياً، فاللاجئ يُنظر إليه

كغريب، وكعبء اقتصادي، تعمل الرواية على ترجمته من خلال المواقف العنصرية التي يواجهها أفراد العائلة، وتعامل أصحاب السلطة معهم، ثم إنّ هذا النفي الرمزي يفرغ اللاجئ من فاعليته، محوّلًا إياه إلى مجرد رقم في ملفات الهجرة أو حالة مؤقتة تنتظر البتّ ليقصى مرتين: من الإقليم ثمّ من السرد، وتبرز الكاتبة هذا الإقصاء من خلال مواقف شخصيات تعيش التجربة ذاتها، فتمنح الصوت لمن لا صوت له وتكشف الرؤية الاختزالية للمجتمع المضيف الذي يرى اللاجئ إمّا محتاجاً للمساعدة، أو مهدّداً للنظام القائم، ممّا يحجب عنه الفضاء العام ويحرمه من المساهمة الفعلية حتى عند رغبته في الاندماج، وهنا فقط يصبح اللاجئ الصورة المعاصرة للامكان، "المنبوذون المحرومون من حماية القانون...إنهم إفرارات العولمة، والتجسد الكامل لروحها. لقد أُلقي بهم في معلق لا تتحدد فيه مكانتهم الاجتماعية، ولا يعلمون ما إذا كانت هذه الحالة مؤقتة أم دائمة، ولا يستطيعون أن يعلموا ذلك... إنهم في رحلة لا تكتمل أبداً..لأن نهاية الرحلة تبقى غير واضحة إلى الأبد، ويظل الوصول إلى مستقر أمر غير وارد إلى الأبد، فلم يتحرروا قط من الشعور المؤلم بزوال الاستقرار، وبطبيعته العابرة، وبمستقبله الغامض... ذلك أن المرء إذا ما أصبح لاجئاً، فإنه يصير لاجئاً إلى الأبد"⁸.

يتّخذ اللجوء في الرواية مساراً مزدوجاً؛ جغرافياً يمثّله الانتقال من الكامبيرون إلى الولايات المتحدة، ورمزياً يرتبط بالهامشية واللامرئية داخل المجتمع الجديد، فجونا كما تصفه الكاتبة كان "في أمريكا، لكنّه ليس من أمريكا Jende was in America, but not of America"⁹، في إشارة إلى المنفى الداخلي الدائم، أمّا نيني فتعبّر عن خيبة الأمل بقولها: "جنّا نؤمن بالأحلام، لكن الأحلام هنا فقط لمن ولدوا لها We came here believing in dreams, but dreams here are only for those born to them"¹⁰، ما يكشف عن وطن تبنى فيه الهوية على الامتيازات الموروثة لا على الكفاءة

والجهد، وبالتالي فإنّ بنية الرواية تقوم على نفي الانتماء المزدوج؛ الفعلي من خلال صعوبة الاندماج الاجتماعي والمؤسّساتي، والرمزي عبر اللّغة والسّرد، حيث يُعاد إنتاج اللاّجئ كهوية مرفوضة في خطاب الدولة والمجتمع، يتحوّل في ظلّها الوطن الجديد إلى منفى بلا خريطة، أين تتلاشى ملامح الذات وتُختزل في تصنيفات نمطية، ويزداد هذا التهميش حدّة بفعل التواطؤ الهيكلي بين مؤسسات الدولة وسردية الإقصاء، ما يجعل من تجربة اللجوء هامشاً مركزياً يكشف مأزق المعايير الحداثيّة في تعريف الإنسان والمواطن، لتتحوّل صورة اللاّجئ في الرواية من مجرّد إنسان يبحث عن وطن إلى علامة على اختلالات العالم الحديث، وفشل الخطاب الليبرالي في احتواء المختلف، الذي لا يعاني من فقر المكان فحسب، بل من فقر التمثيل؛ فهو الموجود جسدياً، لكنّه غائب رمزيّاً، حاضر قانونياً كمكلف، لكنّه مهمّش في خريطة الانتماء الاجتماعي والثقافي، ولهذا تحاول الرواية إعادة رسم خريطة المعنى الثقافي للجوء من خلال مساءلة تمثيلاته في المخيال الأمريكي، لتجعل من رحلة جونغا ويني معركة رمزية ضد التهميش، تكشف في عمقها عن أزمة الحلم الأمريكي ذاته.

6 اللجوء كشرخ هوياتي: جدلية الانتماء والانفصال في الرواية

تطرح الرواية سؤال الهوية بوصفها كياناً هشاً يتنازع الأصل والانتماء الجديد، ما ينعكس في ذلك الشّعور المزدوج بين الانتماء والانفصال؛ فشعور اللاّجئ لا يكمن هنا في تلك الغربة المكانية فقط، بل في حالة وجودية متّصلة بصراعات داخلية بين الأصل والهوية الجديدة التي يُفترض عليه تكوينها في ظلّ واقع اجتماعي وسياسي معقّد، يظهر في شخصية جنغا الذي يحاول التشبث بالحلم الأمريكي، بيد أنّه يصطدم بحقيقة أنّ الوطن الجديد لا يعترف به، ممّا يجعله يشعر بأنّه خارج السّرب (على الهامش)، وغير مدرج بالكامل في نسيج المجتمع، وقد عبّرت الكاتبة عن هذا الشّعور بوضوح قائلة: No matter how hard

"he tierd, America would never fully accept him" مهما بذل من جهد فلن تقبله أمريكا قبولاً كاملاً أبداً"¹¹، وهو ما يتقاطع مع رؤى العروي حينما أكد على "أن لا فكر إلا بالآخر"¹²، وأن الهوية لا تبني إلا في مواجهته، وهي التي تتأرجح بين الانتماء والتغريب، هذا الانتماء الهش الذي لا يقر به يجعل اللاجئ يعيش حالة من الاغتراب المزدوج، ليس فقط جغرافياً وإنما أيضاً رمزياً، إذ يُختزل في هوية ناقصة أو مهمشة لا تمنحه كامل الحقوق الإنسانية والاجتماعية، بل تتحول إلى علامة تهميش وعزلة، فتجربة جنغا كشفت له عن الصدام المستمر بين الحلم و واقع التجربة، بين الرغبة في الاندماج وبين الرفض الاجتماعي الذي عزز فكرة الاغتراب الثقافي والشرح النفسي الذي يعانيه المهاجر بين ثقافته الأصلية وثقافة المهجر، "فالمفني لا يستطيع الانخراط بالكامل في المجتمع الجديد، ولا يمكنه قطع الصلة بالمجتمع القديم الذي ولد فيه، فيتوهم صلة مضطربة وانتماء مهجناً وتتشكل هويته مضطربة هجينة تراوح في منطقة الانتماء المزدوج إلى هويتين متباينتين، تأبى الانتماء إلى إحداها، لتتكشف لنا هوية رمادية مركبة من عناصر كثيرة قائمة على فرضية تفكيك الهوية الواحدة"¹³.

أما نيني فتجسد الشرح الهوياتي بأبعاد أكثر تعقيداً، كونها امرأة تسعى إلى الاستقلال المهني وتحقيق الذات في مجتمع يضعها بين مطرقة ثقافة الأصل وسندان ثقافة المهجر، أين تعيش نيني صراعاً داخلياً مستمراً بين رغبتها في التحرر، وحقها في التعبير عن نفسها وبين قيم ومسؤوليات ثقافية تلزمها بالانضباط والامتثال، ما يجعلها محاصرة بين عالمين لا تنتمي إليهما بالكامل، وقد عبرت الكاتبة عن هذه الجدلية بدقة بقولها:

"She was torn between the freedom she craved and the duty she owed كانت ممزقة بين الحرية التي تتوق إليها والواجب الذي كانت مدينة به"¹⁴، في إشارة إلى أزمة الهوية بين الموروث والحداثة في سياق الهجرة واللجوء التي تتميز بتشظي الذات بين

الأصل والمصير الجديد، مما يولد صراعاً نفسياً بين انتماءات متضادة، "حيث تتبدى التمثيلات المنشطرة لهذه العلاقة انقسام الروح والجسد الذي يجسّد اصطناع الهوية، ذلك الانقسام الذي يطول البشرة الهشّة (السوداء والبيضاء - للسلطة الفردية والاجتماعية"¹⁵ لتعكس الرواية من خلال هذا التشظي في الهوية كيف يُنتج اللجوء نوعاً من الشرخ النفسي والرمزي الذي يهدّد استقرار الفرد الاجتماعي والذاتي، كما يظهر صعوبة التوفيق بين الانتماء الأصلي والانتماء الجديد، ما يجعل اللاجئ دائماً يعيش في حالة تقاطع بين الماضي والمستقبل، بين الحلم والواقع، وبين الانتماء والانفصال.

7 مركزة الهامش السردي: منطق التمثيل المضاد في الشخصيات اللاجئة

تتجاوز الرواية تمثيل اللاجئ ككائن مهمّش لتجعل منه مركزاً سردياً يعيد تعريف الواقع الأمريكي من موقع الضحية، فالشخصيات اللاجئة ليست أدوات داخل السرد، بقدر ماهي "نماذج تتجاوز البعد الفردي للشخصية الأدبية، لتصبح كيانات أكثر شمولاً، يعكس أنماطاً متكررة في الواقع والتاريخ"¹⁶، تجسّد قوى فاعلة تعيد تشكيل ملامح الرواية، كما هو الحال مع جنغا الذي أصبح نقطة ارتكاز في حياة عائلة كلارك إدواردز Clark Edwards الثرية تقول مبوي: "كان جندياً على الرغم من كونه مجرد سائق يحمل حقائق العائلة في صمته"¹⁷، في محاولة منها زعزعة ثنائية المركز/ الهامش، ومنح صوتاً لمن لا صوت لهم، وإعادة الاعتبار للهامش كمساحة مقاومة رمزية وثقافية، ذلك أنّ الهامش لا يعني الضعف، بقدر مايشكّل موقعاً للمقاومة والتحدي، يعيد صياغة العلاقات السلطوية في الثقافة والمجتمع¹⁸، لذلك فإنّ أهميته باعتباره تمثيلاً مضاداً تكمن في إعطاء الفئات المهمشة سلطة سردية تعيد إنتاج السلطة من موقع مغاير.

وبالتالي تكشف الرواية عن تحوّل الهامش إلى بؤرة مركزية في البناء السّردى عبر استحضار أصوات الشّخصيات اللاّجئة التي جسّدت مساراً للمقاومة على المستويين الذاتى والاجتماعى، ويظهر السّرد ما يكتنف تجربة اللجوء من تناقضات وتحديات، دون الوقوع في فخ اختزال اللاّجئ في صورة الضحية، أو اقضاء حضوره، وبهذه الكيفية تؤسّس الرواية لخطاب تمثيلي مضاد يعيد للهامش مكانته كحيز لإنتاج الذات وممارسة الفاعلية الثقافية والاجتماعية، متقاطعاً إلى حد بعيد مع أطروحات النقد الثقافي المعاصر في قراءته للعلاقة بين الهامش والسّطة.

7. 1 آليات المقاومة السّردية للهامش:

تعمل الرواية على تفعيل جملة من التقنيات السّردية التي تمنح شخصياتها المهمّشة قدرة أكبر على التعبير وإعادة بناء حضورها من داخل النّص، من خلال توسيع المساحات المخصّصة لها في السّرد، وإبراز وجهات نظرها الداخلية، وتوظيف آلية السّرد الداخلى لتعميق وعيها الذاتى، ويبرز ذلك في تجربة شخصية نيني التي تكشف عبر مونولوجها الداخلى رفضها الانحصار في أدوار نمطية مرتبطة بالهجرة والزواج:

"I cannot be just a nurse, just a wife. I want more
لايمكن أن أكون مجرد ممرضة، مجرد زوجة. أريد ما هو أكثر"¹⁹.

تتحوّل البنية السّردية في هذا الإطار إلى مجال لممارسة المقاومة السّردية، إذ تستعاد الذات الهامشية من الداخل عبر تفكيك المسكوت عنه وإعادة تأويله، بما يتّسق مع ما طرحه عبد الله الغذامى حول مفهوم التحوّل من سلطة الحكاية إلى حكاية السّطة، "يرتل فيها الخطاب عن المتن، وهو ارتحال ذهني وثقافي يفضي حقيقة إلى إلغاء الأصلي والسخرية منه، ويؤدي إلى إحلال قيم ثقافية بديلة ومنافسة...وهنا يجري تهشيم الجذر الذي يقوم عليه المتن"²⁰، حيث تستثمر الشّخصيات المهمّشة أدوات الحكى لإعادة إنتاج حضورها وتمثيلها

في مواجهة البنى المهيمنة، وتتقاطع هذه الرؤية مع ما أكده ريكور Ricour من أنّ الكتابة من الهامش ليست مجرد تعبير عن موقع جغرافي أو اجتماعي، بل هي فعل من أفعال التملك الثقافي للمجال السردى²¹.

2.7 الصوت السردى بوصفه تمثيلاً مضاداً:

لا يتجلى الصوت السردى في رواية ها قد أتى الحالمون بوصفه مجرد أداة تقنية تحكم مجرى الحكى، بل يتحوّل إلى أداة مقاومة رمزية ضدّ خطابات التمركز، وضدّ التصورات السائدة عن الحلم الأمريكي، "لأنّ الكتابة المقاومة تترك خدوشاً في شكل حلقات متباينة تحددها دلالات الرموز الشقراء التي شوّهت مفهوم الآخر"²²؛ فالسرد منذ الفصول الأولى لا يتّبع نسقاً واحداً، بل يتشظى ويتوزّع على أصوات متعدّدة، يُمنح فيها لكل من جنغا ونييني الحقّ في التعبير عن ذواتهم، وتفسير ما يعيشانه من موقعهما الهامشي كمهاجرين قادمين من الكاميرون، هذه الممارسة السردية تمثّل نوعاً من استرداد الصوت، وهو ماتسعى الرواية إلى تكريسه باعتبارها وثيقة سردية تنقل التجربة لا من وجهة نظر المركز، بل من داخله وضده.

تقدّم الشّخصيات في الرواية بوصفها شهوداً على تناقضات الواقع الأمريكي؛ إذ لا يستعرض السرد حقائق مطلقة أو سرداً مغلفاً، بل يُفسح المجال لأبطاله كي يسألوا الواقع الذي وجدوا أنفسهم فيه، ويتأملوا فيما يعنيه أن يكون أمريكياً دون أن تُمنح حق الانتماء الكامل، فنييني التي نلغياها تعبّر عن قلقها الوجودي والاجتماعي من خلال كلمات تتبع من خلفيتها الإفريقية، وتعيد صوغ التجربة بلغة مغايرة تكشف البون الشاسع بين الخطاب الأمريكى الرسمي وواقع الحياة المعيش.

ويعدّ هذا التعدّد الصوتي أحد أبرز خصائص الرواية ما بعد الكولونيالية، أين لا يتمّ تسويق صوت واحد، بل تمنح الذوات المهمّشة القدرة على الحكي من موقع الاختلاف، ضمن فضاءٍ يشير إلى التهجين الثقافي ينتج منطقة هجينة تسمح بتفكيك ثنائية (الأصل، المستعمر)، وتمنح المستبعدين موقعاً جديداً لإنتاج المعرفة والتأويل، "فضاء حدّي يترك للاختلاف الثقافي أن يبرز.. ويمكن من بناء موضوع سياسي جديد يغرب توقعاتنا السياسية المعهودة ويغيّر الأشكال المألوفة لمعرفتنا بلحظة السياسة... ويعيد الإفصاح عن محصّلة المعرفة من منظور الأقلية الدال الذي يقاوم إضفاء الطابع الكلياني دون أن يكون محلياً أو خصوصياً، والذي يمكن منه إنتاج أشدّ أشكال الثقافة استنتاجاً ومساءلة، وإعادة تقويم كامل للحدث وما بعدها وما فيهما من عمليات حيال بنى القوة المتوضّعة ضمن آلياتهما في الهيمنة"²³، وتؤدي اللغة فيه دوراً مزدوجاً كأداة تواصل، لكنّها أيضاً فضاء مقاومة، حيث تتبدى ملامح التهجين اللساني من خلال توظيف ألفاظ إفريقية في السياق الإنجليزي، بما يتجاوز مجرد التزيين اللغوي إلى ما يماثل السرد المقاوم، وباعتبار الرواية تتجلى كفضاء للحوار الثقافي الذي يُقاوم الاستبداد الأحادي للغة والسلطة، "تجسّد مضامين مختلفة: السلطوية بما هي عليه، السلطة العليا، التقاليدية، الكونية، النزعة الرسمية، ومضامين أخرى.. ومع ذلك، من الضروري بأن هذا الزيج السميك، المعتم، لوجهات النظر اللسانية حول العالم هو منتج بعمق، تاريخياً داخل الهجنة العضوية: إنه ينطوي على رؤية جديدة للعالم، وعلى «أشكال داخلية» جديدة لوعي لفظي للعالم"²⁴، فإنّ هذا الأسلوب السردى يعيد إلى حدٍ ما صوغ الذاكرة الثقافية للمهاجر، ويمنع الذوبان التام داخل الثقافة المهيمنة.

ترنو الرواية من خلال تعالى صدى الصوت السردى المضاد إلى تفكيك خطاب الحلم الأمريكي عبر عرض تجارب العجز والفشل، الهشاشة والصراع الطبقي بديلاً عن السردية المتقائلة التي تُروّج للفرص اللامحدودة، ذلك أنّ الروايات المهاجرة تعد بمثابة أرشيف بديل

للحادثة الليبيرالية، حيث تكشف كيف تخفي الدولة القومية قصص المهاجرين وراء ستار النموذج الأمريكي المثالي، وبالتالي لا تكتفي إمبولو إمبوي من خلال روايتها ها قد أتى الحالمون بنقل تجربة فردية، وإنما تقدّم سرداً مضاداً يُقوّض خطاب القوة والهيمنة، ويسهم في بناء أرشيف سردي بديل، تسمع فيه الأصوات التي لطالما تمّ إسكاتها؛ فالرواية من خلال تعدّد أصواتها ولهجاتها ولغاتها تنتج ما يمكن وصفه بالرواية المقاومة، أين يُصبح السرد أداة في يد المهمشين لإعادة تشكيل ذواتهم وتاريخهم.

3.7 العائلة بوصفها ملاذاً سردياً مقاوماً:

تبرز العائلة وسط كافة أشكال الإقصاء بوصفها المساحة الوحيد الذي يمنح اللاجئ شعوراً بالارتياح والأمان والانتماء؛ فنييني وجنغا يجدان في روابطهما الأسرية ملاذاً نفسياً واجتماعياً: "في خضم فوضى العالم، كانت عائلتهم الملاذ الوحيد الذي يشعرون فيه بالانتماء الحقيقي، على حد تعبير مبوي

In the chaos of the world, their family was only place where they truly belonged"²⁵

فالعائلة هنا ليست مجرد وحدة اجتماعية، بل فضاء رمزي تُمارس فيه الذات اللاجئة حقها في الحضور والنجاة، وإعادة إنتاج هويتها.

8. خاتمة:

تبرز دراسة التمثيلات السردية في الرواية العالمية، وفي رواية Behold the Dreamers ها قد أتى الحالمون لإمبولو إمبوي Imbolo Mbue تحديداً كنموذج يعكس جدلية الهامش والمركز من منظور ما بعد كولونيالي، يُصوّر اللاجئ بوصفه ذاتاً هجينة تعيش بين فضاءين، تعاني الاغتراب المكاني والتهميش الرمزي، وتمنح صوتاً مضاداً يربك الخطاب المهيمن، ويبرز السرد فيه مقاومة اللاجئ للهيمنة الثقافية والسلطوية من خلال

آليات خاصة- أهمية المقاربة النقدية الثقافية في تحليل تمثيلات الهامش ضمن الأدب ما بعد الكولونيالي، لقدرتها على دمج البعد الجمالي بالبعد الثقافي والاجتماعي، كما تبرز فعالية الأدب بوصفه مرآة نقدية للأنساق الاجتماعية والثقافية، تسهم في تعرية ثقافة الإقصاء والتهميش وألياتها الممنهجة التي أسفرت ضمن مقاربة هذه الرواية على النتائج الآتية:

1. تظهر الدراسة كيف يُعيد الخطاب ما بعد الكولونيالي الاعتبار للمواقع المهمشة ويزرع التصورات السائدة حول الهوية والمركزية الغربية.
2. تكشف الرواية عن بنية سردية تعكس تهमيش اللاجئ عبر تعدد الأصوات وتناوب وجهات النظر، مما يتيح تمثيلاً مركباً للهامش في فضاء ما بعد الكولونيالية.
3. تجسد الشخصيات اضطراب الهوية في ظلّ الانتقال من الثقافة الأصلية إلى واقع المنفى، حيث تتقاطع التطلعات الفردية مع آليات التهमيش البنيوي.
4. تفكّك الرواية خطاب "الحلم الأمريكي" من الداخل، من خلال ربطه بآنساق السيطرة الطبقية والتمييز العرقي والبيروقراطي الذي يعيد إنتاج الهامش.
5. تعيد الرواية تشكيل صورة اللاجئ لا كضحية سلبية، بل كفاعل يُقاوم بالإرادة والصوت السرد، ممّن يمنح الهامش حضوراً نقدياً يتحدى مركزية الخطاب السائد.

9. 10. قائمة المراجع:

- ¹. هومي. ك. بابا: موقع الثقافة، تر: ثامر ديب، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، القاهرة، 2004، ص: 43.
- ². Edward Said: Reflections on exile and other essays, Harvard University Press, 2000, P: 173.
- ³. هومي. ك. بابا: موقع الثقافة، ص: 78.
- ⁴. Edward Said: Reflections on exile and other essays, Pp: 173-175.
- ⁵. Pierre Bourdieu: La domination masculine, Editions du Seuil, Paris, 1998, P: 7.
- ⁶. أمين معلوف: الهويات القاتلة (قراءات في الانتماء والعولمة)، تر: نبيل محسن، ورد للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، سورية، 1999، ص: 27.
- ⁷. Imbolo Mbue: Behold the Dreamers, 2016, P: 103.

- ⁸. زيجمونت باومان: الأزمنة السائلة (العيش في زمن اللايقين)، تر: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط1، بيروت، 2017، ص ص: 59، 60.
- ⁹. Imbolo Mbue: Behold the Dreamers, Random House, New York, 2016, P: 103.
- ¹⁰. Ibid, P: 245.
- ¹¹. Ibid, P: 189.
- ¹². عبد الله العروى: الايديولوجيا العربية المعاصرة، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، 1995، ص: 35.
- ¹³. عبد الله إبراهيم: الكتابة والمنفى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، الأردن، 2012، ص: 8.
- ¹⁴. Imbolo Mbue: Behold the Dreamers, p: 207.
- ¹⁵. هومي. ك. بابا: موقع الثقافة، ص: 109.
- ¹⁶. هالة شحات، أمين الزاوي: تمثيلات النقد الثقافي في رواية أصابع لوليتا لواسيني الأعرج -دراسة في النماذج الإنسانية، مجلة النص، المجلد 12، العدد 01، 2025، ص: 455.
- ¹⁷. Idem, p: 223.
- ¹⁸. إدوارد سعيد: الثقافة والامبريالية، تر: كمال أبو ديب، دار الآداب، 1978، ص: 72.
- ¹⁹. Imbolo Mbue: Behold the Dreamers, p: 210.
- ²⁰. عبد الله الغدامي: النقد الثقافي -قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، ط3، بيروت، 2005، ص ص: 140، 141.
- ²¹. Paul Ricour: The Course of Recognition, Translated by David Pellauer: Harvard University Press, 2007, P: 326.
- ²². أحلام بوزيان: المقاومة الثقافية في منمنمة "ليالي رمضان" لـ "محمد راسم"، مجلة النص، المجلد 11، العدد 01، 2024، ص: 286.
- ²³. هومي. ك. بابا: موقع الثقافة، ص: 11.
- ²⁴. ميخائيل باختين: الخطاب الروائي، تر: محمد برادة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 1987، ص ص: 110، 121.
- ²⁵. Imbolo Mbue: Behold the Dreamers, p: 232.